الفصل الرابع والأربعين

ذكر قطع النيل الذى يهب مصر الحياة والثراء

إن ما يعرف بـقطع النيل هو أنـه لما كان ماء المطر لا يكفـى أقاليم مصر حسـبما جرى قضاء الله، ولذلك شق كهنة مصر قديما - بفضل من معجزة إدريس وسعة علمه بالهندسة - من النيل تـرعا وخلجانا من المناطق المـرتفعة من النيل المبارك، وبـذلك أجروا ماءه من ولاية إلى ولاية، وبعد أن يروى أراضى مصر بتمامهـا يزرع الناس على الطمى الذى جلبه ماء النيل، ويحصدون المحاصيل بعد سبعين يوما من الزراعة ويقتاتون بها.

وتلك حكـمة الله التى تجرى مـجرى العادة، فالمياه تـفيض فى كل أنحاء الـدنيا فى شهر يوليـو من كل عام أما هذا النيـل المبارك فى يوم ( )[1] من شهر أغسطس الموافق يوم ( )[2] بالتقويم القبطى، ويسمونه غرة شهر توت، وهى أيام مراسم تقليدية سيـئة حيث يتمنطقون بالزنانيـر ويلبسون ثيابهم المهملة، ويضـرمون النار فيها، ويبتهجون باشتعالها.

وفى تلك الأيام يشاء الله أن ترتفع مياه فيضان النيل، وتسقط النقطة أى يحمر النيل حمرة قـانية ويصبـح وكأنه بحر مـن الحمأ، إلا أنه لا يـفيض دفعة واحـدة وإنما خلال سبعين يوما بتمامها، وبعد ذلك قطع النيل، ويسمون فيضانه قبل سبعين يوما (النقطة).

أوصاف نقطة النيل المبارك

قبل شهر توت القبطى بسبعين يوما ينوب كبير جاويشية الانكشارية عن المحضر أغا فى رعاية أمور الانكشارية، وعندما تقترب أيام النـقطة المذكورة يأذن الباشا للجاويش المذكور فيمضون لتطهـير حوض أم القياس، لأنهم مكلفون بتطهيـر هذا الحوض منذ صدور قانون السلطان سليم. وهم إن لم يطهروا حوض أم القياس لن يعلم مقدار ارتفاع النيل، وكل من فى القاهرة من السقائين الذين يحملون القرب على ظهورهم يجتمعون فى أم القياس ذلك اليوم لكسح حوض أم القـياس. وإذا لم تبق فيه قطرة ماء يدعوا جاويشـية الانكشارية كل يوم فرقـة عسكرية من الـفرق السبع بكـل من فيها من شـيوخ وشباب، وتبسـط الولائم

(١، ٢) بياض فى الأصل.

العظيمة طوال سبعة أيام وسبع ليال، كما يولمون للباشا ولائم عظيمة، وبعد الفراغ من تناول الطعام يخلع الباشا على أغوات الفرق السبع وكبير جاويشية الانكشارية صاحب الوليمة اثنتى عشرة خلعة فاخرة، كما يمنح الباشا خدام كبير الجاويشية مائة قرش، إلا أن جان بولاد زاده لم يكن يخلع على أحد خلعا سوى كبير الجاويشية، ويمنح رئيس الجاويشية كيسا من القروش، وهؤلاء لا يمنحون الباشا فرسا ولا غير ذلك.

ثم يركب الباشا سفينة العقبة، ويمضى بها فى النيل وهو يشاهد ما على ضفتيه إلى أن يصل إلى (القصر العينى)، ثم يأتى بعده جميع الأشراف والأعيان من الانشكارية وجاويشيتهم، ويولم الباشا وليمة عظيمة فى أم القياس، وتقام الولائم كذلك فى أربعين موضعا، وعلى كل وليمة مائتا صحن، وبعد الطعام والدعاء والثناء وإحراق البخور يشربون الأشربة وينصرفون.

وبعد العصر يقدم جميع علماء مصر وصلحائها وأئمتها وخطبائها ومشايخها العظام، وتقام لهم وليمة خاصة يعجز عنها الوصف، لأنه عندما يقدم العلماء يمتلئ جامع أم القياس بالعوام والانشكارية ويطلق عند مجىء كل منهم عيارا ناريا تحية للعلماء، وينال الانكشارية كيسين صدقة من كبير جاويشيتهم، ويمضى قرابة ألفين من الأوداباشية والبكوات إلى حال سبيلهم.

ولكن بما أنها ليلة الجمعة فالعلماء لا ينصرفون قط ويحيون الليلة حتى مطلع الفجر فى قراءة المولد. وأثناء قراءة المولد يقوم كبير الجاويشية بتوزيع الحلوى وإحراق العود، وفى الصباح، وهو صباح يوم الجمعة يبسطون سماطا خفيفا لتناول الفطور، وبعد تناول طعام الفطور يمضى جميع العلماء إلى حافة حوض أم القياس، وهناك يرفع الدعاء الشيخ ابن الرداد شيخ أم القياس، ولأنهم جميعا من المسلمين فليس لأحد ما يشغله فى ذلك اليوم، وتدوم الولائم فى أم القياس وكسح حوضها ثمانية أيام بلياليها، أما كل من يكون فى منصب رئيس الجاويشية فإنه يفلس لأن له ميزانية قدرها عشرة أكياس مصرية، ويكون ذلك مصيبة عليه لأنه فى هذه الولائم طوال ثمانية أيام وثمانى ليال يقوم مائتا طاه بإعداد الطعام، ويقدم ألف خروف وخمسون ألف دجاجة، وخمسون ألف حمامة، وألف ألف رغيف، ومائة ألف كعكة، وهذه النفقات لا يعلم مقدارها إلا الله.

وعندما كان (سليم كتخدا) رئيسا للجاويشية أنفق مثل كل هذه النفقات، لأنه كان يقدم الطعام كل يوم فى مائتى صحن فى حدائق الروضة ومصر العتيقة وأم القياس إلى جماعة الأوداباشية.

وبعد الفراغ من هذه الولائم يرفع الدعاء والثناء، فيتدفق ماء النيل المبارك من جوانب الحوض الأربعة، وحيثما يجرى النيل فإن ماءه يأتى إلى حوض أم القياس. وبعد عشرين يوما من تطهير هذا الحوض مما كان فيه من مياه، يخطرون الباشا بأن النقطة سوف تسقط فى هذه الليلة فيبتهج ابتهاجا لا مزيد عليه فيأمر وكيل الخرج بأن يقيم ولائم عظيمة فى أم القياس يومين وليلتين، ولا يحضر هذه الولائم العلماء والصلحاء والسادات والمشايخ العظام ولا غيرهم من طوائف الجند، بل تقتصر هذه الولائم على ناظر أم القياس، وكتخدا الجاويشية، ورئيس المتفرقة وأغوات الفرق السبع، والترجمان باشى. وبعد الفراغ من تناول الطعام يمضى الجميع، ولا يبقى إلا أغوات الباشا والترجمان باشى لأن الباشا هو صاحب الوليمة إلا أنه لا يحضر، وضيافة ما بعد العصر والصباح يقيمها الترجمان باشى، وفى تلك الليلة يتلى المولد النبوى الشريف وتزين أم القياس بما لا يحصى كثرة من القناديل، والشمع الكافورى، ويحيى العلماء هذه الليلة حتى مطلع الفجر، وفى تلك الليلة يشاء الله أن تسقط النقطة فى النيل، وسقوط النقطة هو أنه بعد تطهير حوض أم القياس يبقى فيه ماء قليل، ثم يظهر ماء كطمى فى حمرة الدم ويسقط، وتتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله، وتتلى آيات الذكر الحكيم طيلة يومين وليلتين ويتلى الختم الشريف مائتى مرة، وعندما تسقط النقطة يجلسون على الجوانب الأربعة للحوض ويفرغون من تلاوة الختم الشريف، ويدعو الشيخ السادات الله ويثنى عليه، ويصبح كمن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، ويقوم وكيل خرج الباشا بنحر مائة أضحية، يوزعها على العلماء، كما يخلع على بعض المشايخ والسادات وشيوخ البكرية ثيابا من الصوف، ويسجل القاضى لحظة سقوط النقطة ويقيدها فى سجل شريف، ويزف البشرى إلى الباشا أحد شيوخ مناديى النيل فينال منه قباء من صوف أبيض، وسبعين أو ثمانين دينارا من ذهب.

وتتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله وشكر نعمته ويمضون جميعا إلى بيوتهم.

مناقب الشيخ السادات

هبط الشيخ السادات مصر قادما من بلاد المغرب عام ( )[1]، وبينما كان منزويا فى خلوته اتفق أن النيل لم يفض فى عام من الأعوام، فعم القحط والغلاء وانزعج أهل مصر أيما انزعاج وبسطوا رجاءهم إلى الشيخ السادات أن يدعو الله لهم، وما أن بسط الشيخ أكف الدعاء حتى فاض النيل الذى لم يفض منذ عام، وكان وفاء النيل ومنذ ذلك الحين يفيض النيل فى هذه الأيام ويفى النيل.

وفى ذلك الوقت دعى السلطان ( )[2] الشيخ السادات إلى وليمة، وملكه نصف مصر، ولذلك يأتى أبناء السادات إلى هذا المكان للدعاء وإقامة الولائم، حقا إنها ذرية عريقة.

ويسكن أم القياس شيوخها، وثلاثمائة من أبناء مناديها. وفى كل ليلة يفيض فيها النيل بأى مقدار يجتمع خدام أم القياس، وشيوخها ويسجلون على طبق من ورق بالزعفران مقدار ما ارتفع من مائه وما يسجلونه هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أدام الله نعمته على سيدنا ومولانا المقام العالى الأعظمى مولانا الوزير كفيل الممالك الشريفة الإسلامية، بالديار المصرية والأقطار الحجازية وما مع ذلك الملك المظفر أعز الله تعالى أنصاره بجاه محمد عليه السلام الفقير إلى الله تعالى أولاد أبى سادات الأمناء على قياس النيل المبارك، يبتهلون إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة، فى صحائف سيدنا ومولانا من يجيب الدعاء سرا وينهون أن الله تعالى زاد فى النيل المبارك يوم الأحد المبارك خامس جمادى الأول سنة سبع وثمانين وألف الموافق الثالث عشر من مسره أربعة أصابع صار ثمانية عشر ذراعا وتسع أصابع أنهى ذلك كذلك اللهم أنعم لنا خيرا).

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

وهذا التقرير يذيل بخاتم شيخ أم القياس وتوقيعه ويرسل إلى الباشا ويدفع عنه القائم بخزانة الباشا دينارا من ذهب عن كل يوم.

وعلى هذا النحو عندما يفيض النيل يومًا بعد يوم عقب سقوط النقطة يعم السرور والبهجة مصر، ويوزع وزير مصر وجميع الأمناء والملتزمين والكاشفين الصدقات والنذور.

ولأن الكثرة الكاثرة من أهل القاهرة أمناء وملتزمون فهم ينتظرون فيضان النيل المبارك، وإذا لم يفض اللهم عافنا وقع القحط والغلاء.

وإذا ما سمع عن ارتفاع منسوب النيل، فلشيخ أم القياس فى الحوض عمود ارتفاعه ثلاثون ذراعا عليها علامات مدرجة بين كل منها نحو أصبع فينظر إليها الشيخ، ويكتب سندا فى كل صباح فيمضى به شيخ طاعن فى السن إلى الباشا، ويدخل حتى حرم الباشا ويدخل عليه فى أى مكان كان فيه قائلا: السلام عليك يا وكيل السلطان الوالى حفظك الله وسلمك زاد النيل المبارك هذه الليلة - بأمر الله بمقدار ( )[1] ذراع، و( )[2] أصبعا، فينال دينارا من ذهب.

ويحاط الباشا علما على هذا النحو طيلة أربعة وثمانين يوما بالتمام.

وتحت إدارة المنادى الذى يأتى إلى الباشا ثلاثمائة وستون شخصا، وكل منهم يمضى إلى كل حى أو كل حارة وينتشر هؤلاء المنادون فى أرجاء مدينة القاهرة، ولكل منهم منطقة خاصة به لايتجاوزها لأن لكل واحد منهم من كل منزل عوائد يحصل عليها ولذلك لا يتجاوز أى من هؤلاء المنادين وإذا جاء مناد آخر وقع صاحب المنزل فى الحيرة، ولا يعرف لمن يسدد العوائد أو الفوائد، ولتلافى وقوع مثل ذلك يلتزم كل مناد بالمنطقة المحددة له.

وعلى الرغم من أن هؤلاء المنادين من صباح الوجوه مكحولى العيون يحملون عصيا، وإن لم يكونوا طاعنين فى السن إلا أنه يتعين عليهم حتما أن يحملوا عصيا.

ويعاون كل مناد ثلاثة أو أربعة من أبناء العرب صباح الوجوه يلفون الشال متعدد الألوان كالأصفر والأحمر والأخضر حول رقابهم، وعندما يمرون بأى باب يقولون:

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(السلام عليك يا أمير محمود، يا شريف أحمد، يا سيدى على، أو يا أمير الأمراء الكرام) وهكذا ينادون أصحاب البيوت بأسمائهم. وعلى هذا النحو يبلغون الناس بأن ماء النيل المبارك زاد بمقدار ذراع وستة أصابع أو بمقدار ذراعين وثلاثة أصابع أو بأى زيادة أيا كان مقدارها، ويجود عليهم كل شخص قدر مقدرته، وعلى الرغم من أن هؤلاء المنادين يتقاضون دينارا ذهبيا عن كل يوم لكل واحد منهم، يحصلون كذلك الأموال من الناس.

ولشيوخ أم القياس ومناديها الثلاثمائة وستين كشوفية مقدارها ( )[1] باره من المال الأميرى ويسددون الضرائب.

وفى إقليم مصر ٢٧٦ بلدة وميناء، وعندما يتوجه المنادون إلى جميع المدن فى مصر، يستأذن منادى مصر من الباشا ويسدد عوائد الكشوفية ويحمل أوراقه ويمضى من ولاية إلى أخرى، فلا يستطيع أن يخبر الناس بمقدار ما ارتفع من ماء النيل.

وفى مدينة القاهرة ٢٠٦٠ حديقة يبسط هؤلاء المنادون سيطرتهم عليها لأنهم يزفون البشرى كذلك إلى بستانيى النيل، لأن كل البساتين فى حاجة إلى النيل، ولذلك فإن جميع الحدائق والحقول تخضع لنفوذهم. وإذا ما احتاج الباشا وأعيان مصر إلى البنفسج والورد والسنبل والعنب، وما إلى ذلك من الثمار فذلك متوفر لديهم.

وعلى مدار أربعة وثمانين يوما ينادى المنادون عن منسوب النيل. وإذا ما بلغ منسوب النيل عشرين ذراعا يقولون: (استوى الماء والخشب): أى أن ماء النيل أصبح مستواه فى مستوى جسر الخشب الذى يعلو العمود المدرج الموجود فى حوض أم القياس.

وإذا ما بلغ أربعة وعشرين ذراعا نادوا قائلين: (من الجبل إلى الجبل)، والمقصود بذلك أن النيل زاد وأصبح فى مستوى سفح جبال الأهرام فى مدينة الجيزة بغرب القاهرة، وهما جبلان كبيران وجبل صغير من صنع بنى الإنسان، ويسميها الناس الأهرام أما العوام فيسمونها جبل فرعون،وإذا ما ارتفع ماء النيل إلى سفحها قالوا (من الجبل إلى الجبل). أما المصريون فيقولون الحمد لله يكفى يارب يكفى لأنه إذا ما ارتفع ماء النيل بمقدار أربعة وعشرين ذراعا إلى هذه الجبال وزاد عن ذلك بمقدار خمسة وعشرين ذراعا

(١) بياض فى الأصل.

(والعياذ بالله) بلغ ماء النيل إلى عتبة الباب الحديد، وهو باب القلعة، فغرقت القاهرة. وخوفا من ذلك حينما ينادى المنادون قائلين: (من الجبل إلى الجبل) يقول المصريون (يكفى يارب) أى أنهم يخافون الغرق. لأن الملك (سوريد) بنى هذه الأهرام بفضل معجزة إدريس عليه السلام، لأن إدريس عليه السلام عرف بوحى من الله أن النيل المبارك سوف يغرق مصر، ولذلك أشار على الملك سوريد ببناء هذه الأهرام، وجعل لها طلاسم، ولذا يبلغ ماء النيل سفح هذه الجبال فى بعض الأعوام.

أما إذا ما اقتربت أشراط الساعة يأتى ملك بنسف هذه الجبال بالبارود الأسود وعندما تنهدم يكون خراب التاسع أى خراب بخت نصر التاسع أما الخراب العاشر فهو حتما إذا زال أثر هذه الطلاسم وزوال الأهرام وبذلك يخرب النيل مصر لا مفر من ذلك، ويخرب نهرنا بالشام ونهر شط العرب ببغداد.

وإذا ما بلغ النيل ستة عشر ذراعا فإنه يتعين تحصيل الخراج السلطانى. إلا أن الأمناء والملتزمين والكاشفين يفلسون وإذا ما ارتفع عن ثمانية عشرة ذراعا اغتنى كل الملتزمين والكاشفين.

أما إذا ارتفع إلى عشرين ذراعا لا تبقى فى مصر أرض بور وتروى جميع الأراضى أى لا يبقى فى مصر أرض قاحلة.

أما إذا غمر النيل أرضها بأكثر من هذا المنسوب لحق بمصر الضرر.

أما إذا بلغ النيل خمسة عشر ذراعا والعياذ بالله وقع الضرر كذلك، فلا يمكن تحصيل خراج السلطان ولا مال الأمناء والكاشفين. وتتعالى الأصوات مطالبة بعزل الباشا بدعوى أنه مشئوم ويحبس فى جوسق يوسف ويعرض جميع الجند مسألة عزله على الأستانة ويظل الباشا حبيسا إلى أن يأتى وزير آخر ويتولى مهامه أحد البكوات بصفة مؤقتة. ويلقى بالملتزمين والأمناء والكاشفين قيما يسمى بالأرق خانه أى - السجن ويعذبون ويعلقون فى البكرات وتصادر أموالهم وتباع ويحصل المال السلطانى بتمامه غير منقوص ثم يطلق سراحهم.

وإذا ما فاض النيل بادر جميع المحتكرين والأثرياء بإخراج ما فى مخازنهم من غلال عن طيب خاطر، لذا يعم الرخاء مصر ويصبح سعر أربعة أوقيات من الخبز العثمانى باره واحدة.

قصة فيضان النيل

إن فيضان النيل لحكمة عجيبة، لأنه قد يفيض سنة ولا يفيض أخرى. ولكن المشاهد أنه يفيض فى غرة شهر توت القبطى، غير أن قلة مائه أو وفرته فليس لها ثبات، إذ إن ذلك فى يد البارى عز شأنه. وهذه الكرامات العلية بقيت من سيدنا عمر رضى الله عنه كما يقال .

ففى خلافة الفاروق عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه فى العام الحادى والعشرين للهجرة النبوية الشريفة فى العام الذى فتحت فيه مصر على يد عمرو بن العاص لم يفض النيل على ما هو معهود. فقال له أهل مصر:

كان لنا دأبا جرينا عليه منذ القدم أنه قبل فيضان النيل بيوم واحد فى كل عام نزين فتاة حسناء كأنها الشمس فى حسنها ونحليها من ياقوت أحمر ونفيس الجواهر، ونعد مئات القناطير من رؤوس السكر، وعدة آلاف أردب من الغلال وآلاف الزعفران والكعك ونطرح هذا كله فى النيل مع الفتاة، فكانت النقطة تسقط صباح اليوم التالى ويبدأ النيل يفيض.

فرد عليهم عمرو بن العاص قائلا:

حاشا لله هذا من طقوس الكفرة، وليس فى ديننا أن نسفك الدماء بغير حق ونبدد نعمة الله على هذا النحو من أجل فيضان النيل.

ومضى على ذلك أربعون يوما ولم يفض النيل وانتشر القيل والقال فى البلاد التى فتحت لتوها، وتردد على ألسنة الناس أن مقدم العرب كان شؤما عظيما عليهم، واحتجز المحتكرون الغلال فى مخازنهم وأفضى ذلك إلى تفشى القحط والغلاء فى مصر.

وفى النهاية أرسل عمرو بن العاص رسولا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بأمر الفتاة التى تطرح فى النيل على وجه التفصيل. ولما بلغ هذا الرسول مكة بعد

عشرة أيام أبلغ عمر بما جاء فى رسالة عمرو بن العاص. وأدرك عمر ما جاء فى تلك الرسالة، وعندئذ كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بأن يبطل هذه العادة من عادات الكفرة. ويقول له إذا ما استطعت أن تمنع طرح الفتاة فى النيل فاطرح رسالتى تلك فيه وكان نص هذه الرسالة هو:

(من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر، يا نيل إن كنت تجرى بحولك وقوتك فلا حاجة لنا بك. وإن كنت تجرى بأمر الله وبقدرته فاجر صاعدا).

وأعقب عمر كلامه هذا بقوله عز من قائل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ {هود: ٤١}.

وبلغت هذه الرقعة عمرو بن العاص بعد عشرة أيام. بيد أن الناس كان قد دب فيهم دبيب اليأس وحمل كثرة منهم عصاهم على كاهلهم ورحلوا عن مصر. وما أن وصلت رسالة عمر بن الخطاب حتى تلاها عمرو بن العاص ومضى فى نفر من أعيان مصر إلى الموضع المسمى الآن بأم القياس، ونقلوا إلى النيل تحية عمر وألقوا رسالته فى مائه.

وعندما سقطت الرسالة فى النيل المبارك جاش ماؤه كأنه البحر الطامى. وفاض النيل الذى لم يفض منذ ستين يوما وزادت مياهه بمقدار الزيادة فى أربعين يوما وذلك ببركة رسالة عمر وما فيها من آيات الذكر الحكيم فابتهج أهل مصر واستبشروا.

ولله الحمد منذ ذلك اليوم لم يخلف النيل ميعادا وتسقط نقطته ما فى ذلك شك.

ونذكر الآن حوض سقوط النقطة وأم القياس وبانيها وأشكال مبانيها:

أوصاف جزيرة روضة أم القياس

تلك البقعة المواجهة لمصر العتيقة تسمى «الروضة». وفى الجهة الجنوبية لهذه الجزيرة قصور عالية وعدة قاعات وحجرات متنوعة ومخزن للأطعمة ومطبخ ومائتا منزل لمناديى شيخ أم القياس.

وفى أحد أركان هذه الجزيرة جامع السلطان قايتباى العلوى، القائم على أربعين عمودا من الرخام، وهو جامع له منارة منخفضة من طبقة واحدة وحرمه شديد الإتساع.

إنه قصر عـال تجرى عليه الأوصاف السالـف ذكرها وحرمه الخارجى ساحـة وسيعة تحيط بها أشجار الجميز وافرة الظل. وهو موضع نزه.

أول من بنى أم القياس:

وأول من ابتنى أم القيـاس كاهن فى عهد القبط يسمى «قليـمون الحكيم» وكان ذلك بعد طوفان نوح علـيه السلام. وجاء بعد ذلك كاهن آخر يسمى «حـصليم» وكان فريد دهره فى علم الهندسـة وقد اخترع آلات مختلفة للمقياس، وهـو الذى جعل أم القياس على شكلها الحالى، وكان له فضل التجديـد. كما أنه شق جميع خلجان مصر وترعها بعلمه وحكمته. وبذلك أجرى ماء النيل من ولاية إلى ولاية.

وبمرور الأيام لحق الخراب بأم الـقياس. وفى عام ١٩٨ قدم مصر الخليـفة المأمون من بغداد وأخرج ما أخرجه من كنوز وكتب مـن جبال الأهرام، وبهذا المال الذى استخرجه رسم أم القياس وجددها.

وفى عام ٧٨٥ فى خلافة المتوكل على الله محمد بـن المعتضد بالله أبو بكر العباسى أمر نائبه السلطان برقوق بأن يضم إلى أم القياس بعض الأبنية.

ولم يدم البقاء للخليفة المأمون فى مصر، وتوجه لمحاربة قياصرة أنطاكية- بما أخرجه من جبال الأهرام من مال - وغلب على ديارهم، فـهجر الأديرة كل من فيها من كفار، وتبدلوا من القرار بالفرار، وضرب حصاره على قلعة طرسوس فملكها ولما بلغ المأمـون الثامنة والأربـعين من عمره قتله أخـوه، ودفن عام ١٩٩ فى ركن مظلم فـى نعش مـن الرخـام بالقرب مـن جامـع النور فى طرسوس وقد تأتى لى زيارته والتأكد من تاريخه.

وللمأمون فى مصر علاوة على أم القياس الكثير من المؤسسات الخيرية.

أوصاف حوض أم القياس

إن «أم القياس» خطأ صحته فى اللغة العربية «المقياس» أى مقياس الماء. والحوض هو التعبير الأصح. إلا أنهم يقولون «أم القياس» وهذا خطأ شائع.

وحوض المقياس يقع فى أحد أركان الحرم الموجود أسفل قصر الخليفة المأمون فى طرف جزيرة الروضة. وهو عبارة عن قبة ذات زخارف تقوم على ثمانية أعمدة من الرخام وتحت هذه القبة حوض عظيم مربع الشكل من الرخام الأبيض الخالص، وعلى جوانبه الأربعة سلم من ثمانين درجة، ويبلغ عمق هذا الحوض ثلاثين ذراعا بالتمام.

ويطهره الإنكشارية مرة فى العام ويستغرق ذلك منهم أسبوعا على نحو ما سبق ذكره. ويتوسط هذا الحوض «شيتخانه» تقع فى نهاية عمود من الرخام يبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين ذراعا، ولكى يبقى هذا العمود ثابتا لا يميل يمينا ولا يسارا ثبت على جسر من الخشب، وهذا الجشر الخشبى مقام بين طرفى الحوض وهذا الجسر الخشبى هو ما يقال عنه «استوى الماء والخشبة».

وبارتفاع خمسة وعشرين ذراعا من هذا العمود حتى «الشيخانة» فى ذروته علامات عشرية بحساب الأصابع. وهذا الحساب مضرب مثل فى مصر، فهم يقولون «حاسبنى بحساب الأصابع». وقد قرض بعد الشعراء أبيانا فى هذا الحساب فقال:

انتظر الأطفال الهلال انتظار جبريل فما أكثر ما تحسب أم القياس بالأصابع

ويعلم من حساب الأصابع هذا مقدار ما يفيض من ماء النيل فى اليوم، فكل علامة تساوى أصبعا، هكذا صنعها المهندس ( )[1].

وكى ما تحسب هذه العلامات أُنشئ سلم من الرخام داخل الحوض وهذا السلم يهبط إلى قاعه بطول ثمانية وأربعين قدما. وكل صباح يهبط شيخ المقياس هذا السلم ويتبين من العلامات الموجودة على العمود الرخامى مقدار الماء الذى جاء به النيل البارحة. ويقوم بتسجيل مقدار ما بلغ النيل من زيادة بالزعفران على رقعة فى حجم الكف ويخطر الباشا بذلك.

وعلى حافة الحوض تاريخ بخط كوفى ذهبى على لوح من الرخام، وشاهد هذا التاريخ كثرة من الرحالة العرب إلا أن أحداً منهم لم يستطع قراءته، إنه تاريخ المأمون والله أعلم، فعلى حافة الجسر الخشبى الذى يثبت عليه العمود كتب آية الكرسى بخط

(١) بياض فى الأصل.

مذهب وفى نهاية هذه الآية تاريخ هو: (وذلك فى جمادى الآخر سنة سبع وأربعين ومائتين)

وفى رأس عمود الرخام خلية مغطاة بالذهب، والتاريخ المنقوش بالذهب على الرخام عند حافة الحوض هو:

(لمولانا الملك عز نصره سلطان محمد خان بن إبراهيم خان دام منصورا وعاش وللمقياس قد أرخت أحيا بتجديد الوالى إبراهيم باشا يسر الله ما يشاء شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٠).

وعلى حافة حوض أم القياس ثمانية أعمدة من الرخام تعلوها قبة مُقرنصة مختلفة الألوان غاية فى الجمال والروعة، وعلى إطارات هذه الأعمدة المذكورة على خلفية لازوردية كتب بخط جلى آيات قرآنية من سورة الروم وهى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]. إلى آخر الآية وبعد ذلك كتب:

(بتجديد ملوك سلاطين المصرية الملك الأشرف الظاهر بيبرس الصالحى).

ويعلو هذا النص على حافة القبة قوله عز من قائل:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ [الزمر: ٢١]. إلى آخر الآيات الكريمة وكتب بعد ذلك:

(مالك ممالك رقاب الأمم مولانا ملك ملوك العرب والعجم، سلطان سلاطين العرب والعجم صاحب العراقين وديار الديلم واليمن السلطان مراد خان خلد الله ملكه وآله وصحبه وسلم بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وسبعمائة).

وفوقه وسط القبة كتب بخط جلى قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]. إلى آخر الآية.

ووسط القبة كتب آية من سورة الإسراء وهى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

ويحيط بهذا الحوض زاوية تقام فيها صلاة الجمعة، وفى أحد أركانها محراب، كتب عليه بخط جلى مذهب قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ {الحج: ٦٣} إلى آخر الآية. وبعد ذلك كتب: (إنشاء هذا الجامع المبارك فى زمان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان سليمان خان بن سليم خان أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو بناء أمير الأمراء المصرية داود باشا جعل اللهم من الفائزين مسجدا سنة أربعة وخمسين وتسعمائة).

وعلى جدار قبلة هذا المحراب كتب على يسرة وجهة الداخلى على لوح مربع من الرخام بخط كوفى دقيق قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ {التوبة: ١٨}. وبعد هذه الآية كتب قوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، وبعد هذه الآية كتب: (بانشاء هذا الجامع قبلة المسلمين).

إنه موضع يستجاب فيه الدعاء. ولأن هذه القبة من الخشب المزخرف حولها شبكة من نحاس، وحول الحوض درابزين من الخشب، ولا يجرؤ أى إنسان على النظر إلى قاعه. والسلام.

وخارج هذا الحوض قاعة واسعة، وفى جوانبها الأربعة كوات مطلة على النيل، ويصعد إلى قمة هذه القاعة بسلم حجرى من أربعين درجة.

وثمة قصر كأنه الخورنق، وكان موضع نزه لسلاطين مصر قاطبة، ويأتى إليه الآن وزراء مصر من وقت إلى آخر طلبا للراحة والاستجمام.

حادثة السلطان سليم الأول فى قصر أم القياس

اتفق ذات ليلة أن كان السلطان سليم فاتح مصر نائما فى ذلك القصر، وقدم فدائى من قبل الشراكسة بَيَّت النِّيَّة على اغتياله، فاقترب من المقياس وتسلق سارية القارب إلى قبة القصر، ثم هبط إلى مخدع السلطان سليم، وفيما كان يسل هذا الفدائى سيفه أيقظ النبى ﷺ سليما من نومه، فطرح هذا الفدائى نفسه من أعلى القصر الشامخ وكأنه

المنارة فى الماء ونجى بنفسه. فألقى سليم باللائمة على الخواص من خدمه إلا أنه تجاوز عن خطأهم ونصبهم جميعا بكوات فى مصر، وأمر بإحضار هذا الفدائى وله منه الأمان واصطحبه معه إلى اسطنبول وأكرمه وأعزه كما سلف أن ذكرنا.

وقصر أم القياس قصر شامخ، وكواته فى جهاته الأربع، وقبة سوره مكسوة بالجص.

وصف جزيرة الروضة
أو جزيرة أم القياس

جزيرة تقع فى النيل، وهو يتبع من جهة الجيزة ويضيق من جهة مصر العتيقة حول هذه الجزيرة، وكان النيل يجف فى بعض الأحايين فيعبر الناس إلى هذه الجزيرة مشيا بينما لا تستطيع أن تنفذ إليها السفن المحملة بالغلال.

وفى عام ١٠٨٦ أنفق جان بولاد زاده حسين باشا مائتى ألف كيس مصرى، وفى أشهر ثلاثة جمع خمسين ألف رجل، وعدة آلاف من ثيران الجرف، وطهروا الطريق أمام أنبار يوسف وأجرى ماء النيل إلى تلك الجهة فأصبحت جزيرة الروضة جزيرة عظيمة.

وقد شيد الملك الصالح نجم الدين قلعة شامخة على طول جوانب هذه الجزيرة الأربعة والآن يبدو بروجها بمزاغلها فى الجهة المطلة على الجيزة. إنها قلعة محكمة وسد ركين، وحصن حصين، وقد بقيت هذه القلعة مئات السنين فما نال منها الخراب.

والمسافة من ركن أم القياس إلى بولاق والتى تبلغ مسيرة ساعة ونصف كأنها الجنة وهى خاصة بالسلاطين وجوها لطيف إلى حد جد بعيد. وهى خالية من الأفاعى والحيات والحشرات، وإنها جزيرة مطلسمة. ونفح أزهار ليمونها ونارنجها يصل إلى مسيرة ساعة وشذاها فاغم.

وفى هذه الجزيرة مائة وستون بستانا وحقلا خاصة بأعيان مصر، ولهم فى هذه البساتين عدة قصور عالية وعرائش وقاعات وأحواض وشادروانات وحمامات. ومن لم

يجد له مسكنا وجد له فى هذه الجزيرة مسكنا. وبها الآن سبعة قصور، وثلاثة جوامع أحداها من أوقاف السلطان المؤيد.

ويجدر بها أن تسمى «روضة من رياض الجنة» وبساتينها ورياضها عامرة إلى الآن. ولم يرد فى كتب التاريخ أنها كانت عامرة.

وجملة القول أنها حديقة «إرم ذات العماد» فى مصر، وإذا قيل إنها روضة من رياض الجنة فحق يجدر بالذكر.

وإذا نزل بها عليل ضيفا ليلة واحدة برأ من علته وامتلأ عافية.

***

opeikandl.com